في استقبال شهر رمضان 2

هنا نواصل الحديث عن بعض الأمور التي جرت في شهر رجب ابتداء من ظهور الإسلام، وانتشاره في أنحاء جزيرة العرب، وانتهاء إلى بعض الأحداث التي جرت في الكويت وارتبط ذكرها بهذا الشهر المبارك.

وكانت آخر إشارات المقال الماضي نشره هي تأكيد العزم على إكمال الحديث عن الأمور التي جرت خلال الاستعداد للقيام بغزوة تبوك، وما حدث خلالها، وهذا هو أوان ذلك:

أحاط المهاجرون والأنصار في المدينة المنورة برسول الله ﷺ، يفدونه بأرواحهم، ويطيعونه في كل ما يأمرهم به، ولكن مجموعة شاذة من الذين كانوا معهم هناك، كانت تظهر الإسلام، وتبطن العناد والكفر، وقد ذكرهم الله عز وجل في كتابه الكريم في عدة مواضع، منها ما جاء في سورة التوبة، ومنها ما جاء في سورة المنافقون التي ابتدأها سبحانه وتعالى بقوله الكريم: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون).

بقلم: د. يعقوب يوسف الغنيم

وتبـدو مظاهـر نفاق هـؤلاء فيما تمت الإشـارة إليه في المقال السـابق، ونعرض في هذا الموقع من أدلة نفاق المنافقين ما هو أكبر. فقد ازداد حقدهم، مع تنامي الاستعداد للغزو، ولقد غرتهم أنفسهم حتى ظنوا أن المسـلمين لا يسـتطيعون القيام بمثل هذا العمل دونهم.

وكان رأس النفاق هو عبدالله بن أبي بن سلول، وهو منافق شديد الحقد على رسول الله ﷺ، وعلى كل من أسلم وأطاع، ولكنه كان يظهر الإسلام، وعندما علم بهذه الغزوة ـ وهي غزوة تبوك ـ أبدى استعداده للمشاركة فيها، وأظهر أنه بدأ بأخذ استعداداته لذلك.

واسـتمر الرسول الكريم ﷺ في تجهيز الأمور التي تقتضيها الحرب، فبعد أن دعا المسلمين إلى المشاركة فيها، ووجد الاستجابة منهـم اتخذ له معسـكرا مؤقتـا في خارج المدينة، انتظارا للوقت المناسب للمسير إلى جبهة القتال، واسـتكمال الاستعداد لذلك، ولكن رأس النفاق الذي ذكرناه لم يفعل مثل ما فعل المسلمون ولم يقف تحت راية رسول الله ﷺ، بل أعد لنفسـه معسكرا خاصا به ضم فيه أمثاله من المنافقين، وعندما سـار المعسـكر المسلم لم يسـر معه، بل تخلف في المدينة. فكان كأنه قد أقام معسكره هذا لمجرد أن يري رسـول الله ﷺ أن له اتباعا كثيرين، وأنه مؤثر في الحرب المنتظرة.

هذه واحدة، وأما الثانية فهي التي رواها ابن هشام فقال:«وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبى طالب رضوان الله عليه، على أهله، وأمره بالقيام فيهم. فأرجف المنافقون (أتوا بأخبار كاذبة) وقالوا:

ما خلفه إلا اسـتثقالا وتخففا منه، فلما قال ذلـك المنافقون أخذ علي بن أبي طالب رضـوان الله عليه سـلاحه ثم خرج حتى أتى رسـول الله ﷺ، وهـو نازل بالجرف، فقال: يا نبـي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتنـي لأنك اسـتثقلتني وتخففت مني! فقال: كذبوا، ولكنني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك. أفلا ترضى يـا علي أن تكون منـى بمنزلة هارون من موسـى، إلا أنه لا نبي بعدي». فرجع علي إلى المدينة، ومضى رسول الله صلى عليه وسلم على سفره.

ومن مظاهر حرص المؤمنين على تلبية أمر رسول الله ﷺ في كل ما يطلبه منهم، أن نراهم يسـارعون إلى تنفيذ أمره طاعة منهم لله عز وجل، ورغبة في خير الجزاء فـي الدنيا والآخرة. وهم إن كانوا يفعلون ذلك في الأمور المعتادة، فإن قيامهم بمهمة الجهاد في سـبيل الله، والدفاع عن الدين القويم من أهم ما يحرصون على فعله.

ومما يذكر في شأن الاستعداد لهذه الغزوة أن كثيـرا من الناس قد بذلـوا من أموالهم ما يعين الجيش المسلم، قال الإمام الحافظ علـي بن أحمد بن سـعيد بن حزم في ص 250 من كتابه: جوامع السيرة: (وأنفق كثير من المسـلمين، واحتسبوا (أي: إنهم جعلوا ما أنفقوه في سبيل الله). ثم قال: «فأنفق عثمـان رضي الله عنه نفقة عظيمـة، روي أنه حمل في هذه الغزوة على تسعمائة بعير، ومائة فـرس وجهزها كلها، حتى لم ينفقوا عقالا ولا شـكالا، وروي ـ أيضا أنـه أنفق فيها ألف دينار».

(العقـال حبـل يشـد بـه ذراع الجمل، والشكال هو ما تربط به قوائم الدابة. وأما الألف دينار فقد كان آنذاك مبلغا لا يستهان به).

ولقـد دلت منهم دلائـل كثرة على ذلك، مـر بنا بعضها، وتجلى البعض الآخر عند قرب خروج الجيش المسلم إلى هدفه الذي حدده ﷺ، وتبين في موقف المؤمنين الذين لم تكـن لديهم المقدرة علـى الخروج حين جاؤوا إلى الرسول الكريم باكين حزنا لأنه لا يملكون ما يحملهم إلى أرض المعركة التي كانوا يتوقون إلى المشاركة فيها إرضاء لله ولرسوله، وفيهم قال الله تعالى: (لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاء وَلَا عَلَى الْمَرْضَى) وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ) (سورة التوبة الآية 91 ـ 92).

وقد ذكر ابن هشام في كتابه هؤلاء الرجال فقال عنهم:

«ثم إن رجالا من المسـلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهـم البكاؤون، وهم سـبعة نفر من الأنصـار وغيرهم: من بنـي عمرو بن عوف: سـالم بن عمير، وعلبة بن زيد أخو بني حارثة، وأبو ليلى عبدالرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار، وعمرو بن حمام بن الجموح أخو بني سـلمة، وعبدالله بن المغفل المزني، وبعض الناس يقول: بل هو عبدالله بـن عمرو رسـول الله ﷺ، وكان أهل حاجة، فقال: «لا أجد ما أحملكم عليه» فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون».

وواقـع الأمر أن ظروف غزوة تبوك من حيـث التوقيت، ومن حيث بعد المسـافة، وتهيب الموقف تجاه عدو لم تسبق للمسلمين مجابهته قد أدت كلها إلى نوع من التردد عند بعض الأفراد، وإن لم يستسـلموا لما خطر ببالهم، وعلى سـبيل المنال، فإن الصحابي سـعد بن خيثمة بن الحارث، وكنيته: أبو خيثمة، كانت له حكاية رويت كما يلي:

ـ خرج هذا الصحابي مع الجيش بصحبة رسـول الله ﷺ، وبعد مسير قصير بدا له أن يعود إلى أهله في يوم شـديد الحرارة، وكانـت له زوجتان وجدهما في عريشـين فـي حديقة له، وقد هيأت كل واحدة منهما مكانها، ورشـت الماء فيه من أجل التبريد، وأعدت له طعاما، وبردت لشرابه ماء. وعندما أقبـل، وقف أمام هذا المنظر وهو ينظر إلى زوجتيه، وما أعدتا له، ثم قال: رسول الله ﷺ في الضح (الشـمس الحـارة)، والريح الحـارة، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ، وامرأة حسناء، في ماله مقيم؟ ما هذا بالإنصاف ثم قال:

ـ والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسـول الله ﷺ، ثم طلب منهما أن تهيئا له زادا للطريق، وركب ناقته واتجه حيث أراد، حتى أدرك رسول الله في تبوك، وحكى له حكايته، وأنه قد جاء نادما على ما فعـل، راجيا عفو الرسـول الكريم عنه فطمأنه ﷺ ودعا له.

ـ وهنا كلمة لا بد منها، وهي أن العريش مسقف من نسيج مكون من شرائح القصب يوضع في جانب من جوانب ساحة المنزل على أعمدة خشبية سميكة، وهو مانع لحرارة الشمس يكفل دخول الهواء من عدة جوانب، وهو معروف عندنا في الكويت بهذا الاسم، وكان يرى في أكثر البيوت، وقد ورد ذكره في الأمثال الكويتية إذ يقال للشخص الذي لا يدرك شيئا «ما عنده مفتاح العريش»، وهذا دليل على عدم الإدراك لأن العريش ـ أصلا ـ ليس له مفتاح لأنه لا باب له ولا قفل.

ولقد كان ما حدث من أبي خيثمة تصديقا لقول رسول الله ﷺ لأصحابه حين لاحظوا تخلـف البعض عن الركب ولـم يواصلوا السـير معهم، إذ قـال: دعوه، فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم. وهذا القول يدل على ثقته بنصر الله عز وجل، ومعرفته بأن من لا يلحق به عن إيمان وطاعة لله فلا فائدة من حضوره لأنه سـوف يكون عبئا على المجموعة كلها.

ولكن حكايـة الصحابي الجليل أبي ذر الغفـاري تفوق كل الحكايـات، وكانت قد جرت في أثناء هـذا الحدث المهم الذي كان مـن أهم ما جرى من أحداث في تلك الفترة التي قد يتسـبب بعض ما جـرى منها في تعرض المسلمين للخطر لولا عزم الرسول ﷺ على الأقدام على ما أقدم عليه بالدعوة إلـى غزوة تبوك على الرغـم من الظروف التي كانت من أهم ما يعوق عملا مهما كهذا ويكفي أن نذكر من المعوقات: كيد المنافقين، ومعاكسة الأجواء، وقوة الأعداء.

كان سيدنا أبو ذر حريصا على الالتحاق بالجيش المسـلم المحارب بقيادة الرسـول الكريم، وقد خـرج ممتطيا جملا له، ولكن هذا الجمل كان بطيء السير بحيث قدر هذا الصحابي الجليل أنه لو انتظر عليه حتى يصل بمشيه البطيء هذا فإنه لن يصل إلا بعد انتهاء المعارك فيحرم من المشاركة بالجهاد في سـبيل الله، وربما اعتبر من المتخلفين الذين لم يسـتجيبوا لنداء رسول الله ﷺ حين انتدبهم لهذا العمل المهم. وتأبى نفس أبي ذر أن تكون من الذين لا يمتثلون لأمر رسول الله، ويلبون نداءه.

لم يستطع أبو ذر الانتظار، ولم يمتلك الصبـر على هذا الجمل الذي لا يسـتطيع مجـاراة غيره من الإبل، وقد روي عنه أنه عندما أبطأ عليه هذا الجمل أخذ متاعه فحمله على ظهره، وترك الجمل في مكانه، ثم مضى يتتبـع أثر رسـول الله ﷺ ماشـيا، وعند أحد الأماكن في الطريق إلى أرض المعركة، توقف الرسول الكريم من أجل الاستراحة، وهنا نظر أحد المسـلمين إلى الطريق فرأى رجلا يسير بمفرده، فقال: يا رسول الله: إن هذا لرجل يمشي على الطريق وحده. فقال الرسـول ﷺ: كن أبـا ذر، فلما تأمله القوم بعد أن قرب منهم، قالوا: يا رسول الله: هو والله أبو ذر. فقال رسـول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشـي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

وقد مات أبو ذر وحده في موقع يسمى الربـذة كان قريبا من المدينة المنورة، وهو معروف إلى يومنا هذا. وقد سبق أن ذكرنا في أحـد الفصول التي قدمناها فيما مضى أن الذي حدث بهذا الحديث الذي كانت فيه إشارة إلى الحال التي توفي فيها أبو ذر هو الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود. وكان قد روى ما حدث كما يلي:

كان أبو ذر في الربذة حين أصابه قدره، ولم يكن معه أحد إلا أمرأته وغلامه فأوصاها: أن أغسلاني وكفناني، ثم ضعاني على قارعة الطريـق، فأول ركب يمر بكـم فقولوا: هذا أبـو ذر صاحب رسـول الله ﷺ فأعينونا على دفنه.

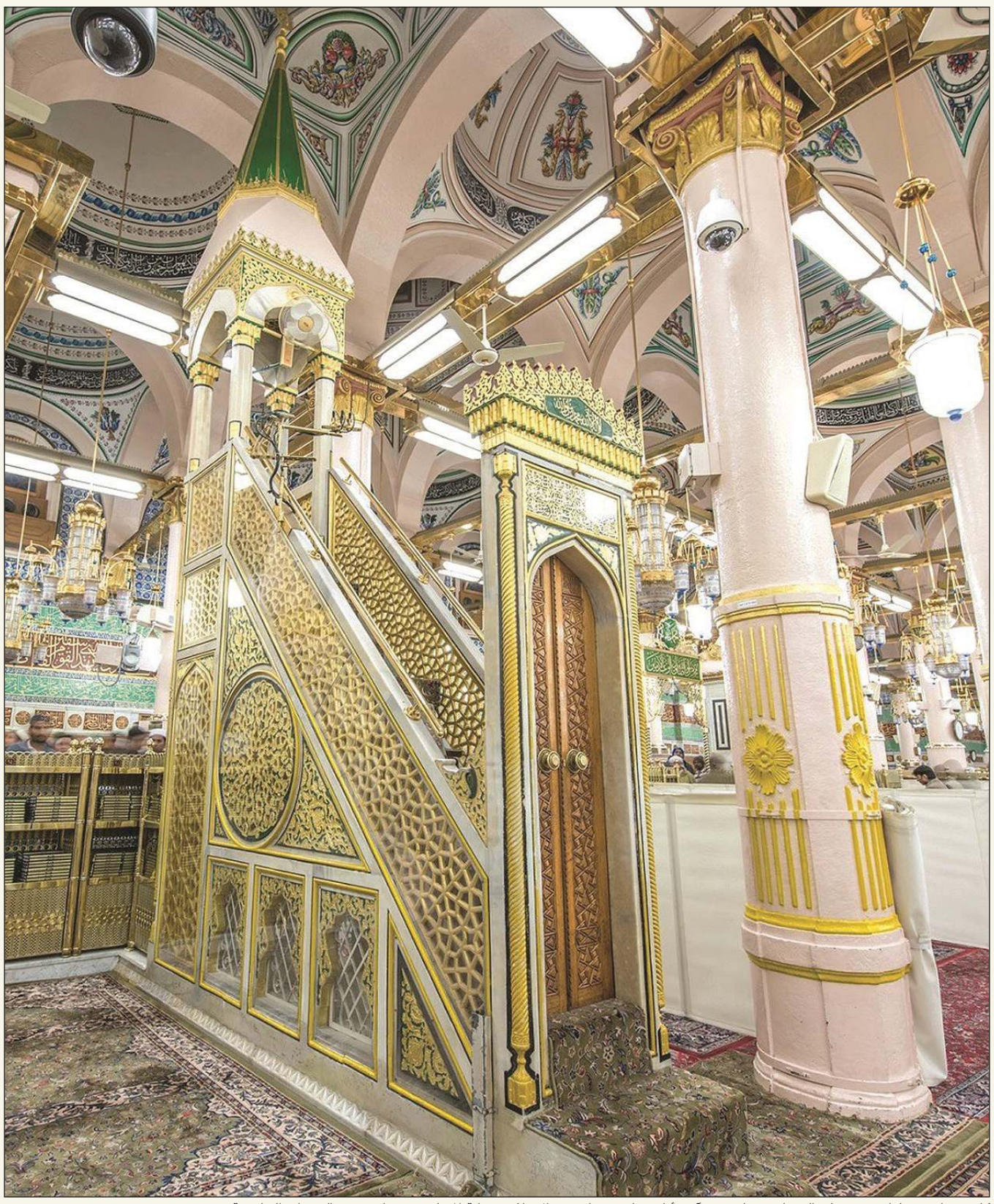

كان نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى آخر أيام حياته معنيا بنشر الإسلام ورعاية المسلمين وحمايتهم من التعديات الخارجية

فلمـا مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبدالله بن مسعود فـي رهط من أهـل العراق فلـم يرعهم إلا بالجنازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل تطؤهـا، وقام إليهم الغـلام، فقال: هذا أبو ذر صاحب رسـول الله ﷺ، فأعينونا على دفنـه. قال: فاسـتهل عبدالله بن مسـعود يبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك! ثم نزل هو وأصحابه فواروه.

●●●

على الرغم من الصعوبات التي واجهت الرسـول ﷺ عندما عزم على حشد جيش المسلمين والدفع بهم إلى الجهاد في سبيل الله، ونصرة دينه في تبوك على الوجه الذي سبق بيانه، فإن النتائج التي بدرت من بعد هذا التحرك كانت باهرة. فقد دب الرعب في الموالين للروم في تلك الأماكن. فجاؤوا إلى رسول الله وهو في معسكره طالبين الصلح راضين بما يفرضه عليهم الرسول من شروط بمـا في ذلك الجزية، وهـي الضريبة التي تفرض على غير المسلمين الذين يعيشون فـي دار الإسـلام مقابل حمايتهـم مع عدم تكليفهم بتكاليف الحرب المادية والبشرية.

فهـذا هو يوحنا بن رؤبـة الذي تصفه الكتب بأنـه صاحب (أيلة) بمعنى أنه هو حاكمها، يأتي إلى رسـول الله ﷺ فيبلغه بطلب الصلح بما شاء من شروط فقبل منه الرسول الكريم ذلك، ثم كتب له ما يلي:

«بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله، ومحمد النبي رسـول الله ليوحنا بن رؤبة، وأهل أيلة سفنهم وسياراتهم في البر والبحر، لهـم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهـل البحر، فمن أحـدث منهم حدثا فإنه لا يحـول ماله دون نفسـه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقا يريدونه، من بر أو بحر»

(أيلة المذكورة هنا هي التي تسمى اليوم: العقبة، وهي تابعة للأردن، ولفظ: سياراتهم: المقصود به القوافل التي تسير من بلد إلى آخر).

●●●

ولم ينته أمر غزوة تبوك عند هذا الحد، فقد عادت التعديات الخارجية التي يشنها الـروم على أطراف بلاد المسـلمين من هذه الجهة. وجاؤوا هذه المرة بحقد أكبر سببه نتائج الرد الذي جاءهم من الجيش المسلم في غزوة تبوك التي أشرنا إليها.

وقـد جاء الإنذار بذلك فـي الوقت الذي اشتكى فيه رسول الله ﷺ المرض الذي توفي فيه، فقـد كان وهو في تلك الحالة متحليا بالصفات التي وصفه الله عز وجل بها في كتابه الكريم بقوله تعالى:

(لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكـم بالمؤمنين رؤوف رحيم) الآية رقم 128 من سورة التوبة.

ولقد تحامل على نفسه عندما خرج من مرضه ماشيا إلى مسجده بين رجلين من أهله حتى جلس على المنبر وتحدث إلى الجالسين أمامه، وهم في أشد الحزن لما رأوه من حاله ﷺ. وقد روى ما جرى في ذلك اللقاء الفريد من نوعه أيوب بن بشير، وهو صحابي ولد في عهد الرسول الكريم فقال في روايته كما وردت في كتاب السيرة النبوية:

«حدثني أيوب بن بشير، أن رسول الله ﷺ خرج عاصبا رأسـه حتـى جلس على المنبر، ثم كان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أحد، واستغفر لهم، فأكثر الصلاة عليهـم»، ثم قـال: «إن عبدا مـن عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنـد الله»، ففهمها أبـو بكر، وعرف أن نفسـه يريد، فبكى، وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا!

فقال: «على رسـلك يا أبـا بكر» ثم قال: «انظـروا هذه الأبواب اللافظة في المسـجد فسدوها إلا بيت أبي بكر فإني لا أعلم أحدا كان أفضل في الصحبة عندي يدا منه».

وقد ورد أنه ذكر في هذا المناسبة أمرين هما:

1ـ قوله: «انظروا إلى هذه الأبواب اللافظة في المسجد فسدوها إلا بيت أبي بكر، فإني لا أعلم أحدا كان أفضل عندي يدا منه».

2ـ أشـار ﷺ إلى ما يجري على حدود بلاد المسلمين في ذلك الوقت، وكان قد جعل أسامة بن زيد أميرا على الجيش الذي انتدبه للعودة ثانية إلى تبوك وإلى ما بعدها في هذه المرة، وأمـره بأن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين.

وكان خروج هذا الجيش مهما عند الرسول الكريم، فقد رآه الناس ـ آنذاك ـ وهو يذكر بـه، وبضرورة خروجه إلى حيث أراده أن يخـرج، وحـين أحس بدنو أجلـه كان هذا الأمر شـاغلا له، وكان قد اسـتبطأ خروج هذا الجيش، فقال آنذاك:

«أيها الناس أنفذوا بعث أسامة، فلعمري إن قلتـم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه مـن قبلـه، وإنه لخليق للإمـارة، وإن كان أبوه خليقا لها».

وتوفي رسول الله ﷺ، تاركا أمته حيرى إلى أن يسر الله لها فبايعت الصديق خليفة يدير أمرها، وكان أحق الناس بذلك، وبخاصة بعد سـماعهم ثناء رسول الله صلى عليه وسلم عليه، وهو في أواخر أيامه. وكان من أهـم ما عني به أبو بكر الصديق من أعمال خلافته لرسول الله ﷺ، وتوليه أمر المؤمنين أن سعى إلى أمرين، أولهما هو: إنفاذ جيش أسامة وفق ما أراده الرسول الكريم، وثانيهما هو شن الحرب على المرتدين الذين أبوا أن يستمروا على إسلامهم بعد وفاة الرسول ﷺ.

●●●

ومما ينبغي أن يذكر في هذا المقام أن الرواة الذين ذكروا ما جرى في الأيام القليلة التي سبقت وفاة رسول الله ﷺ قد كان مما ما قالوه ما يلي:

«أن رسول الله ﷺ استبطأ الناس في بعث أسامة، وكان ذلك وهو في وجعه الذي توفي بعده، فخرج عاصبا رأسه حتى جلس على المنبـر ـ وقد كان الناس قالوا في ذلك: أمر غلاما حدثا على جلة المهاجرين والأنصار ـ فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل» ثم قال:

«أيها الناس، انفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وأن كان أبوه لخليقا لها».

وهـذا ما ينطوي عليه ما سـبق إجماله في هذا الشأن.

ومـن المعـروف أن هذا كان آخر نشـاط قام به الرسـول الكريم، وفيه يبدو لنا أنه كان ﷺ إلى آخر أيام حياته الشريفة معني بنشر الإسلام، ورعاية المسلمين خوفا عليهم مـن التعديات الخارجية التي كان أعداؤهم يقومون بها بين وقت وآخر حتى صارت خطرا تخشـى نتائجه. ولقد كانت هذه التعديات سببا من أسباب الفتوحات الإسلامية التي جرت فيما بعد؛ لأنها استمرت حتى أدت إلى ما جرى بعدها مما شهده التاريخ. وكان أمر هذه الفتوحات ناتجا عن أمرين:

1ـ الدفاع عن النفس، وصد الاعتداء.

2ـ أن الأراضي التي بدأت بها الفتوحات كانت عربية يحكمها العرب، ويسكنها عرب مثلهم، كما سبق أن ذكرنا.

هذا!! ولقد كانـت البداية في ذلك غزوة تبوك التي كانت تدريبا للجيش المسلم على خوض حروب من نوع آخر تشنها جيوش أكثر عددا وأشد سلاحا.

وللحديث بقية.